وقد يكون من الجائز القول، هنا، ان الارباكات العملية التي سبّبها هذا التذبذب في المواقف السوفياتية، جعلت موسكو تدرك، في الحقيقة، ان لتكثيف حجم تواجدها العسكري في المنطقة، عبر امدادات الاسلحة التي تدفّقت الى الدول العربية الحليفة، وما رافقها من تواجد بشري استدعته طبيعة سياسة الامدادات، مخاطر الاضطرار الى الاشتراك المباشر في أية عمليات عسكرية جديدة يحتمل انفجارها بين أطراف النزاع، وهي المخاطر التي بدت ماثلة للعيان في اثناء حرب الاستنزاف، العام ١٩٦٩، على الجبهة المصرية، وبصورة خاصة في اثناء الغارات التي نفّذها الطيران الاسرائيلي داخل الاراضي المصرية خلال تلك السنة، والتي أدّت، في بعض الاحيان، الى حصول احتكاكات مع طائرات «الميغ» التي كان يقودها، في الغالب، طيّارون سوفيات، والتي كانت تتولّى حماية قسم كبير من الاجواء المصرية[١٤٠].

غير انه بالامكان الاعتقاد بأن موسكو، بينما كانت تسعى الى الانخراط، ولو الشكلي، في صف المواجهة المباشرة مع اسرائيل، كانت، فعلاً، تحاول الانطلاق من هذا الانخراط الى تقويم آفاق المرحلة الجديدة؛ هذه المرحلة التي اتضحت باعلان وزير الخارجية الاميركية، وليام روجرز، عن ان بلاده والاتحاد السوفاتي توصّلا الى «تفاهم» بشأن تسوية سياسية ونهائية لأزمة الشرق الاوسط، ضمن اطار اتفاق شامل انبثق من محادثات سيسكو ـ دوبرنين في واشنطن[١٤١]. في هذا الوقت، كان القادة السوفيات توصّلوا، بعد أزمة وضعتهم بين مطرقة المنافس الاميركي وسندان الضغط العربي، الى قناعة من عنصرين: الاول، هو ان طلب انسحاب اسرائيل من على الاراضي العربية المحتلة كشرط سابق للتفاوض على نقاط التسوية الاخرى يجب تخطّيه، وعدم الانطلاق منه الى أي مبادرة جديدة؛ والثاني، هو ما بدا تنصّلاً علنياً، على الاقل، من دعم الفلسطينيين، وهو ما اتضح في البيان المشترك، الذي أُصدر بعد اجتماع وزراء خارجيات الدول الاربع الكبرى والامين العام للامم المتحدة، يوثانت، في ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩؛ اذ أكد البيان، صراحة، ان «لجميع دول الشرق الاوسط حقاً لا ينازع في الوجود كدول مستقلة ذات سيادة»؛ ويعني هذا، في التحليل الاخير، الاعتراف بحق اسرائيل في الاراضي التي يطالب الفلسطينيون والعرب بها[١٤٢].

من هنا كانت ازدواجية التحرّك الدبلوماسي السوفياتي: مشاركة متحفّظة، متردّدة، محدودة في الضغط على اسرائيل، من جانب، وسعي الى مزيد من التركيز على حقوق الفلسطينيين، من جانب آخر. لقد برزت أولى دلالات الاهتمام السوفياتي المتزايد بحركة المقاومة الفلسطينية، خلال الازمة اللبنانية، في أواسط تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٩، حين انفجرت بين الطرفين، الفلسطيني واللبناني، وبلغت حدّ التصادم الدموي. عبر هذه الازمة، سعت الولايات المتحدة الاميركية الى تأكيد مصالحها الحيوية في المنطقة، فأصدرت السفارة الاميركية في بيروت بياناً كررت فيه ان «مصالح الولايات المتحدة الاميركية في هذه المنطقة، تتجاوز مصالح أية دولة أخرى على حدة». الّا ان الاتحاد السوفياتي ردّ، عبر وكالة «تاس» الرسمية للانباء، مستنكراً البيان الاميركي، وأكد انه لا يمكن تبرير أي تدخّل خارجي من قبل دولة كبرى في الاحداث اللبنانية، لأن لبنان «بلد عربي، مرتبط، بصورة وثيقة، بالدول العربية الأخرى، ولن يستطيع احد ان يحلّ القضايا الناشئة حول لبنان بصورة أفضل من الدول العربية نفسها»[١٤٣]. وفي أواخر الشهر عينه، أصدرت وزارة الخارجية السوفياتية بياناً حذّرت فيه الحكومة الاميركية، مرة أخرى، من التدخل في الاحداث اللبنانية، وأعلنت فيه تأييدها للمقاومة العربية ضد الاحتلال الاسرائيلي. وعلى الرغم من ان وكالة «تاس» نشرت مقتطفات من البيان في أربع صفحات كاملة، فانها لم تورد ذلك الجزء من البيان الذي يعرب عن تأييد الحكومة السوفياتية